التاريخ في سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الأحراج الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادي خذوا معاني العظمة في سناها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم . . . . .

— ٢٤ —

وأنى للرئيس أن يستمرىء الراحة أو يهفو إليها حتى يفرغ من رسالته ؟ لذلك فهو يجعل للعمل وقته جميعاً لايكاد يدعه لحظة وكان له في هذا الجهاد الأكبر خير عون من عافيته وقوة بدنه ، فلقد بنته الغابة كما تبني دوحاتها العظيمة ، كأنما كانت تهيئه لهذه العظائم . . .

ولم تكن الحرب وحدها هي كل مايحمل الرئيس من عبء، فلقد كان له ممن يعمل معهم من الرجال ، كما كان له من اختلاف الأحزاب وتبلبل الرأي العام أثقال فوق أثقاله .

وهناك عدا ذلك موقف الولايات الوسطى التي عرفت باسم المحايدة فكان يخشى الرئيس أن تنضم إلى الاتحاد الجنوبي فتزيدهم قوة وعزما ولن تكون تلك القوة في الوقت نفسه إلا خسراناً لأهل الشمال . . .

ثم هناك موقف أوربا من هذا النزاع . . . وهو أمر له خطره يحسب الرئيس له ألف حساب ، وإن كان سيوارد لايرى له أول الأمر ماراه الرئيس من خطر .

* * *

ولم يترك الناس رئيسهم يعمل لقضيتهم الكبرى فحسب ، بل راح الكثيرون يطرقون بابه يرجونه ويسألونه إلحافاً ، فهذا ممن ساعدوا الحزب الجمهوري يطلب من طريق خفي أن يكافأ على خدماته . . . وذاك يطلب وظيفة يأكل من راتبه فيها . . . والموظفون في البيت الأبيض يعجبون من هذا الرئيس الذي لايجعل فرقا كبيراً بين قاعة الحكم هناك وبين حجرة مكتبه في سبرنجفيلد . .

لقد جعل للناس يومين كل أسبوع يلقاهم فيهما جميعاً لا يوصد بابه في وجه أحد ، وإنه ليستمع إلى كل ذي حاجة، فأن استطاع أن يمد إليه يد المساعدة دون أن يجور بذلك على القانون لم يتردد أو يتأخر . وكثيراً ما كان يجعل الرحمة فوق العدل ، إذا رأى نفسه بين أن يعدل فيقسو أو يرحم فيميل بعض الميل . . . ولكنه في ذلك لايسيء إلى الخلق أو يتهاون في قاعدة جوهرية وحاشاه أن يفعل هذا أو ماهو دونه . . .

ولن يضيق صدره بذوي الحاجات لديه ، مع أنهم كانوا يلقونه على السلم ، ويقفون أمام غرفته صفوفاً خلف صفوف، بل كثيراً ما كانوا يستوقفونه في الطريق ويزحمونه . . . ولكنه من الكاظمين الغيظ . . ولن يستطيع قلبه الكبير أن ينهر السائل فيزيده بؤساً على بؤسه ، وهو الذي عرف اليتم منذ حداثته وذاق الشقاء ألواناً . . .

على أنه مهما بلغ من رحمته وبره بالمساكين ، يعرف أساليب الماكرين ، فلا ينخدع بما يراه من ادعاءاتهم فيصرفهم بالحسنى وإلا فبشيء من الشدة يشبه التأنيب ويراد به الزجر . . . دخل عليه رجل كسرت ساقه يسأله عملا إذ قد فقد رجله في الحرب ، فسأله الرئيس أيحمل أية شهادة أو دليلا على صدق دعواه ، ولكن الرجل لايحمل شيئاً، فصاح به الرئيس قائلا : «ماذا؟ ليس لديك أي أوراق أو أي شهادات أو أي شيء يرينا كيف فقدت رجلك . . . فليت شعري كيف أتبين أنك لم تفقدها في فخ وقعت فيه وقد سطوت على بستان غيرك . . . »

ويعجب القائمون على الحكومة كيف يطيق الرئيس وقد ملأت وقته الأحداث الجسام أن يلقى هؤلاء الناس ويستمع إلى مثل هذه الأمور الصغيرة وكان جديرا به أن يكلها إلى غيره ... ولكن أليس هو من الناس ؟ أليس هو خادم الجميع قبل أن يكون رئيس الجميع ؟ وهل يغير المنصب ما فطرت عليه الأنفس الكريمة من كريم الخصال ؟ ...

ها هو ذا ابراهام النجار تراه في البيت الأبيض ولم يزل هو هو، وداعة في قوة ، وتواضع في عزة ، ورقة في وقار ... ومن وراء ذلك قلب تسع رحمته شكوى الناس جميعا ، قلب لا يهنأ ولايفرح إلا إذا صنع المعروف وأدلى الجميل فأفرح القلوب وأدخل عليها المسرة .

وما كان أعظم الرئيس وأجمل خلقه حين يلتقي في الطريق إلى غرفته أحد سارقه ممن لاقاهم قبلُ في مضطرب الحياة ، فيقف يضاحك وإياه ويده على كتفه ويسأل عن أمره وأمر أسرته ... ولقد يأخذه معه إلى قاعة الرياسة فيذكر له الأيام الماضيــة حتى ما يشعر الرجل أنه بين يدي رئيس الولايات المتحدة

ثم ما كان أعظم الرئيس حين كان الفقراء يستوقفونه في الطريق فيقف ليستمع إليهم وليكلمهم كأنه أحدهم، فلا ترفع ولا كبرياء. ولن يستنكف الرئيس أن يطيل الحديث أحيانا علّه يستطيع أن يكفكف بكلامه شيئاً من دموعهم ويخفف بالعطف عليهم بعض آلامهم ... ولئن كانت له حيلة إلى إجابتهم إلى ما سألوا فما هو عن ذلك بضنين

ولقد كان ينكر عليه مسلكه هذا بعض موظفي البيت الأبيض .. ولكنهم حين كانوا يزعمون أنه لا يليق ذلك بمن كان في مثل مركزه كان يغيب عنهم أنه لا مسلك غيره لمن كان له مثل قلبه . على أنهم لم يلبثوا أن أكبروا الرئيس وأعجبوا بخلاله ، وأصبحوا لا يرون أي مأخذ عليه ، وأصبح من المناظر المألوفة عنــدهم أن يدخل أحدهم ببطاقة للرئيس فيراه ينهض بنفسه إلى خارج الحجرة يلقى مرسلها مرحبا ضاحكا ... أو أن يروه يأتي بنفســه إلى الحاجب فينهره حين يسمعه يمنع طالبي الدخول عليه ...

أما الوزراء وكبار الموظفين وقواد الجيش فقد اعتادوا أن يروا الرئيس يسعى إليهم أحياناً بدل أن يدعوهم إليه .. وكثيراً ما كان يلتفت الواحد منهم فاذا حاجبه مقبل يعلن إليه أن الرئيس على السلم أو في طريقه إليه

ويدخل الرئيس فيجلس إلى مرؤوسه يستفهمه عما يريد وينصت إليه ؛ فان كلمه مرؤوسه في أمر فني كلام الاخصائي ، لا يستنكف الرئيس أن يستوضحه وكأنه منه التلميذ حيال أستاذه ؛ ويعجب المرؤوسون من هذا الرجل الذي لا يدعي أبداً العلم في أمر يجهله ، والذي يفهم ما يُبَيَّنُ له في فطنة وسرعة

* * *

ماجت وشنجطون بالمتطوعين حتى أصبحت المدينة معسكراً عظيما ، ولكن الرئيس يعوزه القواد ... وإنه ليطيل التفكير فيمن عساهم أن يصلحوا للقيادة في هذا النضال الهائل .. إن على رأس القوات الآن القائد سكوت ولكنه شيخ كبير ناهز الخامسة والسبعين ؛ والموقف يتطلب قائداً فتياً يبث من روحه في قلوب جنده ويمشي بهم إلى النصر ... ألا ليت القائد لي لم يرفض ما عرض عليه ، ولكن بئس ما فعل لي فلقد انضم إلى الثائرين وأصبح من أكبر قوادهم

فكر الرئيس وتدبر .. وأخذ يقلب الأمر على وجوهه ورأي الرأي العام من حوله يزيد موقفه صعوبة ، فلكل حزب رأي ، ولكل جماعة فكرة ، ولحكام الولايات آراؤهم وإلا توقفوا عن إرسال الجنود ... والرئيس يتمنى أن يهيئ له النــاس بسكوتهم الجو ليختار قواده على أساس الكفاية ولكنهم لا يفعلون ، وهو لا يستطيع أن يغضب تلك الجهات في هذه الظروف القاسية ، بينما هو في الوقت نفسه لا يستطيع أن يرضيهم جميعاً

ويستعرض الرئيس الموقف الحربي ، فيجد القائد ماكليلان قد وفق في أعماله في ڤرجينيا الغربية ، ويسمع الثنــاء عليه من جهات كثيرة حتى لقد سماه نابليون الجديد ... ولذلك يدعوه الرئيس ويعينه قائداً عاماً للقوات في ڤرجينيا

وتتجه الأنظار كلها إلى القائد ماكليلان فهو شاب في الرابعة والثلاثين ؛ وفيه كثير من الصفات التي تحمل الناس على محبته ؛ فله حسن السمت وهيبة الطلعة وروح الشباب ؛ وله من صغر جرمه ما يشبه به نابليون ، وكذلك له من صفات نابليون بريق عينيه ومضاء عزيمته وتوقد حماسته

وسرعان ما تعظم شهرته حتى يجرى اسمه على الألسن جميعاً ؛ وكم له في الحياة من أشباه ممن قامت شهرتهم على أوهام الجماعات ولكن لعل الأيام تثبت جدارته ، فان الأعين والقلوب متفقة على الاعجاب به

على أن للشباب نزعاته ونزواته ، فهذا القائد يدل بجاهه من أول الأمر ، حتى ليعد نفسه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ البلاد مما هي فيه ... ولقد شايعه في هذا الزعم كثير من الناس ... حتى رجال مجلس الوزراء قد عظمت ثقتهم فيه إلى حد أنهم كانوا يميلون إلى جانبه أحياناً إذا هو رأى ما لا يرى الرئيس والرئيس يتذرع بالصبر ويتغاضى عن ذلك في سبيل ما يعقده من الآمال على ما عساه أن يأتي به ذلك الشاب

وأخذ القائد الشاب يدرب مائتي ألف رجل على حدود

فرجينيا، وقام بذلك العمل على خير ما يرجى، ولكنه أطال التدريب وأطاله حتى تسرب الملل إلى الرأي العام فضاق بما يفعل فإن الناس كانوا يستعجلون الزحف؛ وكذلك ضاق الرئيس ذرعا، ولكن ماكليلان يعد الناس أنه يستعد لحركة عظمى سوف تطفئ نار الثورة

وشاع في الناس اسم قائد آخر هو القائد فريمونت، ولقد كانت له مواقف محمودة في الجهات الغربية يومئذ، وكان هذا الرجل من قبل أول مرشحي الحزب الجمهوري للرياسة فله بذلك في الناس منزلته وخطره، وله في قلوب الساسة وأولي الرأي نفوذ كبير

ولن يقل فريمونت عن ماكليلان اعتزازا وترفعا، فهو يحيط نفسه بفرقة من الحرس، ويرقي بعض الجند دون أن يرجع إلى الرئيس وهو بحكم مركزه القائد الأعلى لقوات الدولة... وكذلك يتباطأ فريمونت في الرد على البريد القادم من العاصمة... ولن يقف الأمر عند ذلك، بل تأتي الأنباء أن فريمونت ينوي إقامة اتحاد ثالث في الجهات الشمالية الغربية

ولكن الرئيس لا يصدق هذه الأنباء فهو واثق قبل كل شيء من إخلاص الرجلين لقضية الاتحاد، وإلا فما كان ليضعهما حيث وضع مهما يكن من الأمر

وأحاط فريمونت نفسه أول الأمر بجو من السكوت، ولكنه ما لبث أن أذاع قرارا خطيرا اهتز له الرئيس وتبرم منه وضاق به، وذلك أن القائد أنذر أهل مسوري في آخر شهر أغسطس عام ١٨٦١، أي بعد قيام الحرب بنحو أربعة أشهر أنه ينفذ قوانين الحرب في الولاية، ولذلك فهو يحدد منطقة يجعلها محرمة، يعدم كل من يحمل السلاح فيها ضد حكومة الاتحاد وكذلك يعلن القائد أن كل من تحدثه نفسه بالثورة من أهل الولاية جميعا يكون جزاؤه مصادرة أملاكه وتحرير عبيده إن كان له عبيد...

ارتاع لنكولن للقرار وتربد وجهه وأوشك أن ينفد صبره، وكان يلاحظ من يرونه غداة هذا القرار علامات الهم الشديد على محياه، ولكنهم كانوا كذلك يلمحون أمارات العزم والصلابة ودلائل الحزم والثبات

انزعج الرئيس لإثارة مسألة العبيد في هذه الآونة، فلقد جعل مبدأ الحرب من أول الأمر المحافظة على الاتحاد، حتى تكون قضية دستورية لا عيب فيها، وبذلك تجد سبيلها إلى القلوب وتستنهض الهمم بما تثيره عدالتها من حماسة ولا تدع سبيلا لأحد أن يتهم أهل الشمال بأنهم أوقدوا النار من أجل أغراضهم وعواطفهم في مسألة العبيد... وكذلك كان يتحاشى الرئيس إثارة تلك المسألة حتى لا تثور الولايات المحايدة وتنضم إلى أهل الجنوب، ويفقد الرئيس كل أمل في ضمها إلى جانبه، ومن تلك الولايات مسوري نفسها فقد كان فيها كثير ممن يقتنون العبيد، وأهم منها وأعظم خطرا كانت ولاية كنتولي التي ينتمي إليها الرئيس منذ نشأته، فلقد بذل الرئيس كل ما في وسعه للمحافظة على مودة أهلها لتنضم إلى جانبه أو لتبقى على الأقل محايدة، فلموقعها الجغرافي في الحرب شأن أي شأن

ولكن هذه السياسة الرشيدة العاقلة التي جرى عليها الرئيس ما لبثت أن طاح بها ذلك القرار الطائش؛ فسرعان ما هاجت الخواطر في تلك الولايات المحايدة، وسرعان ما جزع كثير ممن يسلمون بنظام العبيد من أهل الولايات الشمالية

وعظم خطر هذا القرار حتى أصبح نقطة تحول جديد في الموقف كله... ونظر الرئيس فإذا هو تلقاء عاصفة شديدة من الرأي العام، فإن دعاة التحرير وأعداء نظام العبيد ما لبثوا أن هتفوا بالقائد الجريء الحازم، وراحوا يمتدحون خطته بقدر ما يعيبون على الرئيس تردده وخوره

وانطلقت الصحف تدعو الرئيس أن يقر فريمونت وأن يحذو حذوه فيعلن قرارا عاما ينطبق على الولايات الثائرة جميعا. ولما وجدوا منه الإعراض والغضب، عصفت برؤوسهم النزوات وراح بعضهم يدعو إلى إرغام الرئيس على الاعتزال ووضع فريمونت في مكانه

ويتطلع الرئيس بعينيه الواسعتين فإذا بوادر الفرقة والتنازع تكاد تقضي على قضية البلاد، وإذا العاصفة تشتد وتشتد؛ ولكنه الرجل الذي لم يخلق له الفزع؛ وهل يذكر أنه خاف العاصفة يوما ما حينما كانت تنطلق عاتية مدوية فتهتز لها أرجاء الغابة، وهو واقف منها موقف المتفرج؛ ذلك الموقف الذي ما كان يطيقه صبي في مثل سنه إلا إذا كان مثله من بني الأحراج الذين ألفوا ملاقاة العواصف؟...

«يتبع» الخفيف